فقه سنن العمران البشري في القرآن الكريم
مدخل لتحقيق الشهود الحضاري

حميد الرباع
طالب باحث بسلك الدكتوراه: الدراسات الإسلامية وقضايا المجتمع المعاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
المملكة المغربية

الملخص:

يتناول هذا المقال فقه سنن العمران البشري باعتباره منهجاً قرآنياً شاملاً يربط بين هداية الوحي وقوانين حركة المجتمع والتاريخ. ويبيّن أن تجديد عمران الأمة يتطلب الجمع بين قراءة الوحي وقراءة الكون والمجتمع. ويخلص إلى أن تحقيق الشهود الحضاري يقتضي فقه هذه السنن والعمل بها بعيداً عن الأماني المجردة، لأن القرآن الكريم ربط إمكانية إنجاز الشهود الحضاري بمعرفة الأسباب، وكشف السنن التي تحكم الإنسان والمجتمع والعالم.

الكلمات المفتاحية: فقه السنن، العمران البشري، الشهود الحضاري، الجمع بين القراءتين، تجديد الدرس القرآني

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

تمهيد:

القرآن الكريم كتاب يفسر نظام الوجود من الذرة إلى المجرة، ومن البحر المسجور إلى البيت المعمور، وهو "كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير" (هود الآية 1)، إنه"كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قسمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إن سمعته حتى قالوا:"إن سمعنا قرآنا عجبا، يهدي إلى الرشد"(الجن الآية 1-2)، من قال به صدق ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم" (أخرجه الترمذي)، قال عنه الحق سبحانه:"ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين"(النحل 89)، وهو روح الكون "وكلك أوحينا إليك روحا من أمرنا"(الشورى 52).

ومن هنا فهو يمثل الأساس الأول للمعرفة الإسلامية في شتى مجالاتها، فهو أصل الأصول والمصدر الأول والأهم للمسلم، يرجع إليه ليستقي منه كل ما ينفعه في دنياه وآخرته "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم"(الإسراء الآية 9). ومن هذا المنطلق جاء التوجه للبحث في القرآن الكريم عن فقه سنن العمران البشري، من خلال دراسة آيات سنن العمران، باعتباره المدخل الرئيسي لفهم واقع المجتمعات الإسلامية، والقدرة على استشراف آفاق المستقبل. وتحقيق الشهود الحضاري للأمة. وقد قسمته إلى ثلاثة مباحث أساسية:

المبحث الأول: الدرس القرآني بين التقليد وضرورة التجديد

إن واقع كثير من المسلمين اليوم مع القرآن الكريم مؤرق وحزين، وعلاقتهم به يحكمها الهجر والعقوق، حتى كاد ينطبق علينا قول الله تعالى:" ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني" (البقرة الآية 78)، أي لا يعلمون من الكتاب إلا التلاوة والترتيل، فلا يعرفون معانيه، ولا يفهمون حكمه ومقاصده ولا يتدبرون آياته. لقد ركزت الدراسات القرآنية التي تمثل بوصلة حياة المسلم اهتماماتها لقرون طويلة على طرق التلاوة وحسن الترتيل، فوضعت علم قواعد التجويد، وبنيت أوجه التشابه والاختلاف بين القراءات القرآنية المختلفة.. وإذا كان ذلك كله من حقوق القرآن علينا امتثالا لقوله تعالى "ورتل القرآن ترتيلا " (المزمل الآية 4)، إلا أن الاقتصار على ذلك وإغفال جانب التدبر والتفكر، فصل غير مبرر ومرفوض بين التلاوة والتدبر فالله تعالى يقول: "كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب" (ص الآية 29) وكان من نتائج ذلك أن غاب الفقه القرآني الحضاري، وتحول القرآن إلى وسيلة للتزيين أو القراءة على الأموات أو لعلاج الأمراض المستعصية وهي قراءات لا تتجاوز الشفاه!؟

لقد اهتم المسلمون عبر تاريخهم الطويل بالقرآن وعلومه وبالحديث وأقسامه، لكنهم وللأسف أغفلوا واقع الناس و لم يولوه الاهتمام اللازم مع إقرارهم أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان. وقد وقع بسبب التقصير في ذلك ظلم شديد للبلاد والعباد، وأصبح النص الديني بعيدا عن حياة الناس، وبدأ الفصام النكد بين الشريعة والحياة. وأصبحت حياة المسلمين تمثل الوجه المقلوب والمخالف للرؤية القرآنية، وهذا ما زاد من تعقيد واقع العلاقة بين المسلم والنص القرآني، وانتشرت سلوكيات وأفكار بعيدة كل البعد عن روح القرآن ومقاصده العامة. ومن هنا برزت ضرورة تجديد منهج التعامل مع القرآن الكريم، ومراعاة التطورات التي عرفتها مسيرة المجتمعات البشرية.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

إن الإسلام له موقف محدد ودقيق من التطور الاجتماعي، يبنى على أساس طبائع الأشياء، وقانون الفطرة...فالحقائق الإلهية المودعة في الشريعة لو خرجت الحياة عليها، و لم تصطبغ بصبغتها، و لم تتحرك في مجالاتها، لاضطربت وتزعزعت، فأصابها شلل يعطل سيرها.. وهذا معنى قول الله تعالى ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن (المؤمنون 71)[1]. فالتغير والتطور وقائع اجتماعية ملازمة للحياة الإنسانية، لكن الإسلام لم يتركها تعبث بحياة الناس، بل حدد لها قوانين تحكم حركتها وتوجهها وتسخرها لخدمة البشرية. هذه القوانين هي بمثابة سنن للعمران البشري في كل زمان ومكان. والقرآن الكريم قد نبهنا إلى وجودها، وأمرنا بضرورة فقهها وحسن التعامل معها.

لكن الدراسات القرآنية اتسعت مباحثها وتشعبت في القضايا الفقهية حيث الحلال بين والحرام بين، بينما لم تحظ مجالات الحياة الإنسانية بعلاقاتها الاجتماعية المعقدة وأحوالها المتقلبة والمتغيرة باستمرار، بنفس الاهتمام. ونتج عن ذلك نوع من الفقه بعيد عن واقع الناس، اصطلح عليه عند العامة "بفقه دم الحيض والنفاس"! وغاب الفقه القرآني بمعناه الشامل. وتوهم البعض بأن إدراك أبعاد النص في القرآن الكريم مرتهن بالتفاسير التي استمدت من القرآن في العصور الأولى، الأمر الذي أدى إلى إغلاق باب الاجتهاد والركون إلى التقليد، ولهذا نحتاج اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى الاعتناء بأشكال الفقه الأخرى مثل: فقه سنن العمران البشري، بمنهج جديد لا يستنسخ منهج دراسة الأحكام الشرعية، لأن ذلك يقضي على امتداد القرآن الكريم وخلوده وقدرته على العطاء المستمر والمتجدد زمانا ومكانا يقول تعالى: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين بشيرا ونذيرا" (سبأ 28)، ويقول أيضا: "ولكن رسول الله وخاتم النبيين" (الأحزاب 40).

لتحقيق هذا الفقه القرآني الحضاري الشامل، لا بد من تحديد مناهج الفهم الموصلة إلى التدبر والتفكر، وتجاوز القراءات التجزيئية للنص القرآني، ومحاولة الجمع بين الكتاب المسطور والكون المنظور. ولعل فقه سنن العمران البشري في القرآن الكريم يمثل المدخل الرئيسي لتحقيق ذلك.

المبحث الثاني: سنن العمران البشري ومهمة الجمع بين القراءتين

إن كل ما يقع في الكون والنفس والمجتمع يخضع لقوانين إلهية وسنن ربانية يتحرك وفقها، وتضبط مسيرته، بعيدا عن الصدفة التي تخبط خبط عشواء، أو الحتمية والجبرية التي تقيد حرية الإنسان وتشل حركته، فكل شيء يتغير ويتحرك ويتطور وفق إرادة الله ومشيئته المطلقة"وخلق كل شيء فقدره تقديرا" (الفرقان 2)،"لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون" (يس 39)، لكنه سبحانه وتعالى منح الإنسان العقل والقدرة والإرادة على الفعل وتسخير الكون لخدمته فأمره بالعمل "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون"(التوبة 105) وبين له سنن التسخير، والتغيير والتحويل والإحياء والتمكين، والتحصين، والتحذير، وغيرها من العمران البشري. فإن هو استطاع توظيفها في حياته تمكن من توجيه حركة المجتمع لصالحه، وإن هو أغفل ذلك وأهمل استعمالها – كما هو حال أكثر المسلمين اليوم– فإنه سيصبح ضحية للتطور والتغيير المستمر، ومن هنا كان لزاما على المسلمين أن يكون عمرانهم البشري مبنيا على أساس فهمهم القرآني، لكن بدل الانطلاق من القرآن إلى العمران وقع العكس..."إن القرآن أساس كل بناء وكل عمران فلا نبني بناء، ولا نعمر تعميرا، إلا على أساس من كتاب الله وسنة رسول الله(ص) إن القرآن العظيم تصميم رباني راقي لبناء فخم ما كلف

[1] د. محسن عبد الحميد "منهج التغير الاجتماعي في الإسلام" مؤسسة الرسالة ط 1 سنة 1403_1983 ص 62 و76.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

الإنسان إلا بإنجازه، على شموليته وامتداده، بدءا بعمران الإنسان، حتى عمران السلطان"[1] وصولا إلى عمران الاستخلاف الذي يشمل كل العمران البشري ويستوعب كل أبعاده الكونية.

إن قراءة كتاب الله المسطور (الوحي)، وقراءة كتاب الله المنظور(الكون).. الجمع بين هاتين القراءتين فقط كفيل بتجاوز الواقع الاجتماعي المريض. "فالقراءات في الوحي وفي الكون فريضتان، لأنهما أمران إلهيان والجمع بينهما ضروري إذ بدونه يقع الخلل.."[2]. إن التدبر يكشف حقائق الآيات القرآنية (الوحي)، والتفكر يكشف حقائق الآيات الكونية(الكون)، حتى إذا استنارت هذه وتلك، أبصر المتدبرون والمتفكرون..ولذلك قال عز وجل: "قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه، ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ" (الأنعام 104). قال سبحانه"فاعتبروا يا أولي الأبصار"(الحشر 2). فالجمع بين القراءتين تدبرا وتفكرا تثمر إبصارا، يجعل المؤمن يرى الحقائق بنور الله تعالى، فتشرق عليه شمس القرآن وتخرجه من الظلمات إلى النور بإذن ربها، قال سبحانه وتعالى:"أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم"(الملك 22)، إنه القرآن العظيم يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام.

لذلك فمشكلتنا اليوم ليست بافتقاد مصدر المعرفة، لأن القرآن الكريم تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه"إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"" (الحجر الآية 9)، بل إن أساس أزمتنا وجوهر مشكلتنا في افتقادنا وسائل الفهم الصحيحة وطريقة التعامل مع النص القرآني، أي منهج فقه القرآن."والفقه في نظر القرآن يشمل الفقه في أمر الله وشرعه، كما يشمل الفقه في سننه وخلقه، ولهذا وصف القرآن المشركين والمنافقين بأنهم"قوم لا يفقهون" وقال بعد أن ذكر بعض آيات الله في الكون"قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون" "[3]. والفقه هنا بمعناه العام الذي ورد في القرآن والذي يعني الحياة، وليس الفقه بمعناه الاصطلاحي الذي يعني استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية. وإذا كانت كتب الفقه تشكل معظم الثقافة الإسلامية، فإننا نحتاج اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى الاعتناء بأشكال الفقه الأخرى مثل: فقه العمران البشري. إن الحكم التشريعي إنما يجيء ثمرة للوجود والبناء الإسلامي، بمعنى أن الحكم التشريعي لا ينشئ المسلم، ولا ينشئ المجتمع، وإنما ينظمه ويحميه.. ولعل ذلك كان سبب تأخر الآيات التشريعية إلى الفترة المدنية لتكون ثمرة لوجود فرد وجماعة وأمة وحضارة...أما أن يكون الحكم التشريعي هو الأول والآخر، فأعتقد أنه منهج خاطئ في النظر إلى القرآن والتعامل معه، على أهمية الفقه التشريعي وأهمية معرفة الحلال والحرام.

إن النص القرآني، قد فسر وشرح من وجهة نظر لغوية، وبلاغية وفقهية، و لم يأخذ حقه من الدراسة باعتباره كتابا يوجه حياة الناس ويضع أسس عمرانهم. وعندما اضطربت علاقة القرآن بالعمران، وأصبح المسلمون يؤسسون عمرانهم حسب أهوائهم الفكرية والسياسية والاجتماعية، ثم يبحثون في القرآن الكريم عن تأصيل لسلوكياتهم المنحرفة، وعندما لا يجدون فيه ما يوافق أهواءهم يطالبون بتغيير النص القرآني لكي يساير واقعهم الاجتماعي. لقد كان الأولون يقرؤون القرآن فيرتفعون إلى مستواه.. أما نحن فنقرأ القرآن فنشده إلى مستوانا وهذا ظلم لكتاب الله تعالى.. إن القرآن كتاب يصنع النفوس والأمم ويبني

---

[1] فريد الأنصاري "بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار لآيات الطريق" منشورات ألوان مغربية سلسلة اخترت لكم ص 8.

[2] طه جابر العلواني " الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون" سلسلة إسلامية المعرفة عدد22 المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط1 القاهرة 1996 ص13.

[3] يوسف القرضاوي الاجتهاد والتجديد بين الضوابط الشرعية والحاجات المعاصرة" ضمن كتاب فقه الدعوة ملامح وآفاق سلسلة كتاب الأمة عدد 19 ص188 ط 1.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

الحضارة.. هذه قدرته.. هذه طاقته.. فأما أن يفتح المصباح فلا يرى أحد النور لأن الأبصار مغلقة، فالعيب عيب الأبصار التي أبت أن تنتفع بالنور، والله تعالى يقول: " قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام " (المائدة 15-16)[1]. من هنا يمكن القول أن فقه الواقع الاجتماعي شرط أساسي لفقه النص القرآني في أبعاده المختلفة، وغاية ذلك توجيه السلوك الاجتماعي وفق الرؤية القرآنية وليس العكس، لأن القرآن ليس كتاب عقائد وعبادات وأخلاق فقط، بل إنه كتاب شامل ومنهج متكامل للحياة الإنسانية. وإن ما تعيشه المجتمعات الإسلامية اليوم من تدهور وتفكك وانحلال، لا يرجع إلى النص القرآني بل إلى الواقع الاجتماعي الذي يتطور ويتغير بعيدا عن الوحي، بالإضافة إلى ضعف علاقة المسلمين بالقرآن فهما وممارسة. "فالمنهج القرآني في بحثه لمشكلات التقدم والتخلف المادي عند الناس، يواجهها كمشكلة أقوام، لا مشكلة دين وعقيدة، وإنما مشكلة صلة بدين"[2]. لهذا كله نحتاج إلى تجديد صلتنا بالقرآن الكريم، واقتحام عالم السنن النفسية والاجتماعية والتاريخية حتى نكتشف من خلالها التفسير الصحيح للأزمة التي تمر بها المجتمعات الإسلامية، والطريق لعبور هذه الأزمة. إن فقه العمران البشري ضرورة حضارية لكل أمة تريد أن يبقى لها دور متميز في التاريخ، وإن إهمال فقه الواقع الاجتماعي وإدراك السنن النفسية والقوانين التاريخية الفاعلة في المجتمعات هو باب الشر الأكبر على المجتمع كله، أما إعمال الواقع فإنه يمكننا من فهم واقعنا، ويعيننا على استشراف آفاق المستقبل، بعيدا عن الصدفة أو الحتمية.

إن قراءة كتاب الله المسطور (الوحي)، وقراءة كتاب الله المنظور (الكون) كمصدر للمعرفة البشرية المتزنة الواعية..الجمع بين هاتين القراءتين كفيل بتجاوز الواقع الاجتماعي المريض. فالجمع بين القراءتين تدبرا وتفكرا تثمر إبصارا، يجعل المؤمن يرى الحقائق بنور الله تعالى، فتشرق عليه شمس القرآن، وتخرجه من الظلمات إلى النور بإذن ربها، قال سبحانه وتعالى:"أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم"(الملك 22)، إنه القرآن العظيم يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام.

إن القرآن شفاء للمؤمنين يقول تعالى: " ونترل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين " (الإسراء الآية 82). لكن هذا الدواء الرباني لا يتحقق تأثيره ومفعوله إلا عندما نحسن استعماله، أما عندما نجهل طريقة الاستعمال، ونتعامل معه حسب أهوائنا، فإنه ومما لا شك فيه يفقد تأثيره على النفوس. لهذا نحتاج إلى تجديد صلتنا بالقرآن الكريم، وصياغة منهج جديد للتعامل معه وفق رؤية شاملة تقوم على فقه النص القرآني في أبعاده المختلفة تحقيقا لمقاصد الشرع الكلية في جلب المصالح للعباد ودرء المفاسد عنهم، وهذا يتطلب منا قراءة جديدة لواقعنا الاجتماعي بأبجدية سليمة تعين على فهمه وحسن تنزيل النص القرآني عليه. فقه النص القرآني وفقه الواقع الاجتماعي هما الجناحان اللذان يحلق بهما القرآن الكريم، وغياب أحدهما يؤثر على الآخر. وتوهم البعض بأن إدراك أبعاد النص في القرآن مرتهن، في كل زمان ومكان، بالتفاسير التي استمدت من القرآن في العصور الأولى، حال بين المسلم وتدبر النص القرآني، وأدى إلى إغلاق باب الاجتهاد والركون إلى التقليد.

إن أحكام القرآن تجمع بين الثوابت والمتغيرات، وإذا كان ما هو ثابت لا يتغير مع مرور الزمن، فإن مجال المتغيرات يحتاج إلى فقه متجدد واجتهاد مستمر لتحقيق مقاصد الشرع في الاجتماع البشري وحفظ مصالح المجتمع ودرء المفاسد عنه." ويستلزم هذا اطلاع المجتهد على أحوال مجتمعه، وإلمامه بالأحوال العامة لثقافة عصره بحيث لا يعيش في واد والمجتمع من

[1] محمد الغزالي كيف نتعامل مع القرآن الكريم "مدارسة مع ذ عمر عبيد حسنة" منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي. ص 13-14
[2] جودت سعيد حتى يغيروا ما بأنفسهم" دار الثقافة للجميع سوريا ط3 1975 ص33.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

حوله في واد آخر.. فالمجتهد الحق هو الذي ينظر إلى النصوص والأدلة بعين الاعتبار، وينظر إلى الواقع والعصر بعين أخرى حتى يوائم بين الواجب والواقع، ويعطي لكل واقعة حكمها المناسب لمكانها وزمانها وحالها "[1].

إن القرآن الكريم رسالة الرحمة إلى الناس أجمعين، ومقتضى الرحمة تحقيق مصالح العباد في الحال والمآل. الانطلاق من هذه الرؤية تجعلنا نفهم نصوص القرآن فهما مصلحيا ونطبقها تطبيقا مصلحيا."و التفسير المصلحي للنصوص معناه النظر والبحث في مقاصد النصوص والمصالح المتوخاة من أحكامه، ثم تفسيرها واستخراج معانيها ومقتضياتها وفق ما لاح من مقاصد ومصالح..وهذا التفسير ليس سوى إعمال للأصل المقرر، وهو أن الشريعة مصالح كلها ورحمة كلها...والتفسير المقاصدي المصلحي للنصوص يزيل من أمامنا قدرا من دعاوى تعارض النص والمصلحة[2].

وتدعو الضرورة الواقعية في الواقع الإسلامي الراهن إلى التركيز على المقاصد الشرعية ذات الصبغة الاجتماعية، وإحلالها في منظومة المقاصد الموقع المهم، وتوجيه مناهج الكشف والاستجلاء توجيها يساعد على ذلك، حتى تكون الصياغة المقاصدية للشريعة محققة في الواقع للأغراض الاجتماعية حيث أصبحت الحياة اليوم تمتد فيها العلاقات الاجتماعية وتتكثف بما لم يكن معهودا من قبل، فتنشأ من النوازل والأوضاع ذات الصبغة الاجتماعية ما يستلزم تنزيل الشريعة عليها تنشيط البحث في المقاصد الشرعية الاجتماعية لصياغة الأحكام بحسبها، وتوجيهها في سبيل إثراء الفقه الاجتماعي وإنضاجه...إن للدين غاية اجتماعية، فمصلحة الإنسان التي هي المقصد الأسمى للشريعة لا تتحقق إلا في النطاق الاجتماعي[3].

هذا الاجتهاد المقاصدي أحد الأدوات الرئيسية لفقه النص القرآني وحسن تنزيله، وهو يشكل الضابط المنهجي والعمق الثقافي للرؤية المستقبلية في المجال التشريعي والعمراني. وهو شرط أساسي لفقه سنن الاجتماع البشري في القرآن الكريم. وهذا المنهج في التعامل مع النص القرآني وجد بوادره الأولى في العصر الحديث مع الاتجاه الاجتماعي في التفسير الذي[4] وجد نفسه ملزما بقضايا الأمة ومشكلاتها الثقافية والاجتماعية والسياسية...، فجدد المنهج والاتجاه، واستأنف مسيرة العطاء، ويعتبر "تفسير المنار" للشيخ محمد رشيد رضا، و "في ظلال القرآن " للشهيد سيد قطب معالم بارزة في مسيرة التجديد والاجتهاد في التفسير الحديث، ونماذج مشرقة للفقه القرآني العمراني، أكدت أن القرآن العظيم نص مطلق يستطيع الناس أن يفهموه في كل عصر، وفي كل مكان، بطريقة تجعلهم قادرين على معالجة مشكلاتهم انطلاقا من هديه وتوجيهه، ولعل ذلك هو السبب في اقتران صفة الكرم بالقرآن، لأن الكرم عطاء متجدد، والكريم هو من يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، إنه القرآن الكريم.

المبحث الثالث: سنن العمران البشري والشهود الحضاري

إن فقه سنن العمران البشري في القرآن الكريم له أهمية كبرى في توجيه الإنسان المسلم إلى القوانين التي يتأسس عليها البناء الاجتماعي، وتلعب دورا مهما في تنبيهه إلى سنن النهوض وعوامل السقوط من أجل قراءة واقع المجتمعات الإسلامية بأبجدية سليمة تتأسس على حسن تدبر القرآن الكريم والتفكر في آياته، وإبصار حقائقه واكتشاف سنن الله في الأنفس والآفاق،

---

[1] يوسف القرضاوي مرجع سابق ص160.

[2] أحمد الريسوني النص والمصلحة بين التعارض والتطابق" مجلة إسلامية المعرفة عدد13 السنة 4- 1998.

[3] عبد المجيد النجار المقتضيات المنهجية لتطبيق الشريعة في الواقع الإسلامي الراهن منشورات مركز دراسات المستقبل الإسلامي عدد2 دار المستقبل ص 61 و80.

[4] انظر محمد سايسي " الاتجاه الاجتماعي في التفسير في العصر الحديث" أطروحة دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية موسم 2000-2001 تحت إشراف د عبد السلام الهراس

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وحسن تسخيرها ومعرفة كيفية التعامل معها لبناء حضارة إنسانية راشدة. وهذا الفقه يتأسس على حسن قراءة النص القرآني واستيعاب الواقع الاجتماعي، وبالتالي ضرورة الجمع بين القراءتين أي فقه النص وفقه الواقع، ليس بغرض تبرير هذا الواقع وإنما من أجل إصلاحه وتوجيهه على ضوء الرؤية الإسلامية.

إن العودة إلى آيات سنن العمران في القرآن الكريم ودراستها بدقة والنظر إلى مآلاتها وعواقبها في النفس والمجتمع، لن تتحقق إلا من خلال تحديد علاقتنا بالقرآن الكريم، وإدراك أبعاد النص القرآني المختلفة وعدم حصرها في النواحي الفقهية التشريعية، لأن ذلك يقضي على امتداده وخلوده وقدرته على العطاء المتجدد زمانا ومكانا. وعندما نحدد منهج التعامل مع القرآن الكريم، ونحسن فقه سنن العمران البشري، يكون ذلك مدخلا أساسيا لتحقيق الشهود الحضاري، الذي يمثل الوظيفة المركزية لهذه الأمة مصداقا لقوله تعالى" وكذلك جعلناكم أمة وسطا، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا "(البقرة: الآية143).

إن الاجتماع البشري كما تبين، يخضع لسنن قد عرض لها القرآن الكريم، وأكدها من خلال تاريخ البشرية الطويل، وهي تبين أن الله لم يخلق الناس عبثاً، وأن من يعمل سوءاً يجز به، وأن إنجاز الشهود الحضاري له شروطه ومقدماته وأسبابه، وهو ليس عبارة عن أماني يتمناها المرء ثم يتواكل، وينتظر المعجزات، والقرآن الكريم نبه إلى ذلك وأقر أنه "ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجْزَ به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً "(النساء:123).. هذا قانون الله، وتلك سنته التي لا تبديل لها ولا تحويلا. لقد ربط القرآن إمكانية إنجاز الشهود الحضاري بمعرفة الأسباب، وكشف السنن، التي تحكم الإنسان والمجتمع والعالم، وقدم القرآن الكريم ذا القرنين أنموذجاً متجسداً لربط الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج، واعتبر ذلك مقدمة لابد منها للنهوض والشهود الحضاري، وبذلك لم يكتف القرآن بتأكيد موضوع السنن نظرياً، بل إنه قدم مثالا تطبيقيا: فذو القرنين الذي آتاه الله من كل شيء سبباً فأتبع سبباً، وكان له التمكين في الأرض لأنه عرف السنن وانضبط بها، سار في الأرض وكانت مساحة رحلته من مشرق الشمس إلى مغربها، وتعرف من خلال هذا السير إلى أسباب العجز الحضاري، والتحديات والمعاناة التي تواجه البشر، وأيقن بضرورة توفير الظروف والشروط التي تكسبهم المنعة، فكان أشبه بالمهندس الذي عرف أسباب التردي، ووسائل التمكين، في الأرض، ووضع الخطط، وأشرك الأيدي العاملة، واستحضر المواد المطلوبة لإتمام عملية الإنجاز.. قال تعالى: (ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيءٍ سبباً * فأتبع سبباً *...)(الكهف: 83-84).

إن عملية الشهود الحضاري، والقيام بالدور المطلوب على مستوى الحضارة الإنسانية، وامتلاك القدرة على تنزيل القيم في الكتاب والسنة على واقع الناس، يتطلب أول ما يتطلب الشهود على الذات، أو الوعي بالذات، والشهادة عليها، وتقويمها بقيم الكتاب والسنة، وتحديد مواطن الإصابة والخلل الذي لحق بها، والتعرف على أسبابه والسنن التي تحكمه، وعدم الاكتفاء بالشكوى والتبرم. إننا لن نستطيع تحقيق الشهود الحضاري، لا على أنفسنا ولا على (الآخر)، إذا كان الكثير من شعب المعرفة التي يتطلبها بناء المجتمع وشهوده، وتقتضيها وظائفه غائبة ومؤذنة بتمدد (الآخر)...إن ملف الشهود الحضاري هو الملف المفتوح باستمرار، على مستوى الذات وعلى مستوى (الآخر)...فالغياب الحضاري، الذي يتولد عن عدم وعي الذات ووعي (الآخر) والتحقق بمعايير الشهود الحضاري، يعني الموت والخروج من ساحة الشهود.. كما أن فقدان معايير الشهود يعني

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

السقوط والارتماء الحضاري، أو العمى الحضاري.. إضافة إلى أن عدم وعي (الآخر) يعطل مهمة الشهود وإلحاق الرحمة بالعالمين[1].

إن الإشكالية الأساس في تحقيق الشهود الحضاري، الذي يؤهل لخيرية الأمة، وقيادة البشرية، هي في القدرة على استصحاب قيم القرآن الكريم وحسن قراءة واقع الأمة بأبجدية سليمة، ووعي سنني، يفهم الحاضر ويستحضر دروس الماضي ويستشرف آفاق المستقبل، أما من كان في حاضره أعمى فهو في مستقبله أعمى وأضل سبيلا. ولهذا فإن من مقومات الشهود الحضاري ومستلزماته أن يتحقق المسلمون بالفقه القرآني الحضاري ويتحققوا بالوعي السنني. كما أن فقه السنن العمرانية يعين المسلم على فقه سنن التداول الحضاري، التي قررها القرآن الكريم في قوله تعالى (وتلك الأيام نداولها بين الناس)(آل عمران:140) والتي تعتبر معرفتها شرطاً أساسياً للتبصر بالعواقب، وتؤهل معرفتها إلى تسخيرها والتمكن من إنجاز الشهود الحضاري، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال السير في الأرض، الذي فرضه الله على المسلم بقوله: (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل..)(الروم:30).

ختاما

تبين من خلال ما سبق أن فقه سنن العمران البشري يمثل المدخل الأساسي لتحقيق الشهود الحضاري، والقيام بهذه المهمة يستوجب نقلة نوعية للعقل المسلم، تجدد مناهج التعامل مع القرآن الكريم، بما يحقق عطاءه المستمر والمتجدد.

هذه بعض القضايا التي يريد هذا البحث إثارتها، والنتائج التي توصل إليها. وما كان في هذا العمل من صواب فهو من الله تعالى وبتوفيقه، وما كان فيه من خطأ أو تقصير فمن نفسي.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

[1] ذ. عمر عبيد حسنة، تقديم كتاب "نحن والحضارة والشهود"للدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي، ضمن سلسلة "كتاب الأمة العددين 80 و81 الجزء الأول.. ص 16 و 38

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المراجع والمصادر

1- د. محسن عبد الحميد "منهج التغير الاجتماعي في الإسلام" مؤسسة الرسالة ط 1 سنة 1403_1983.

2- فريد الأنصاري "بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار لآيات الطريق" منشورات ألوان مغربية سلسلة اخترت لكم.

3- طه جابر العلواني " الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون" سلسلة إسلامية المعرفة عدد22 المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط1 القاهرة 1996.

4- يوسف القرضاوي الاجتهاد والتجديد بين الضوابط الشرعية والحاجات المعاصرة" ضمن كتاب فقه الدعوة ملامح وآفاق سلسلة كتاب الأمة عدد 19 ط 1.

5- محمد الغزالي كيف نتعامل مع القرآن الكريم "مدارسة مع ذ عمر عبيد حسنة" منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

6- جودت سعيد حتى يغيروا ما بأنفسهم" دار الثقافة للجميع سوريا ط3 1975.

7- أحمد الريسوني النص والمصلحة بين التعارض والتطابق" مجلة إسلامية المعرفة عدد13 السنة 4- 1998.

8- محمد سايسي " الاتجاه الاجتماعي في التفسير في العصر الحديث" أطروحة دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية موسم 2000-2001 تحت إشراف د عبد السلام الهراس.

9- عبد المجيد النجار المقتضيات المنهجية لتطبيق الشريعة في الواقع الإسلامي الراهن. منشورات مركز دراسات المستقبل الإسلامي عدد2 دار المستقبل.

10- نعمان عبد الرزاق السامرائي كتاب "نحن والحضارة والشهود"، الجزء الأول. تقديم، ذ. عمر عبيد حسنة، ضمن سلسلة كتاب الأمة العددين 80 و81

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/